

أضواء علي مفاهيم ثقافة السلام

د. محمد عبد الحميد

رئيس قسم العمل الطوعي ودراسات السلام

معهد دراسات الكوارث واللاجئين

المستخلص

تهدف هذه الورقة لتسليط الضوء علي ثقافة السلام من حيث المفاهيم والاثر الذي تحدثه تجاه رفاه وترقية البشرية لا باعتبارها نقيضاً لتقافة العنف فحسب، وإنما باعتبارها القيمة المطلقة التي من خلالها تتحقق إنسانية الإنسان.

إن أهم ما تؤكد عليه الورقة كمؤشر أن ثقافة السلام هي المدخل الاساسي للسلم الأهلي والإجتماعي والذي عبره يتمكن الإنسان من بلوغ غاياته المبتغاه في عمارة الارض وإحداث التنمية علي كل المستويات.

This paper aims at shedding light on the culture of peace on conceptual level and the impact it creates towards the wellbeing of the entire humanity not only as the opposite notion of the culture of violence, but also as an absolute value through which humanity of humans is fully recognized.

The most important aspect this paper tries to tap as an indicator is that, culture of peace is the millstone of civil and social peace through which development is achieved and humans are bestowed with all necessary motivations to build and construct civilization.

مقدمة

خلافاً لما يأمل المثاليون فإنه وللأسف قد انطبع المسار العام للعلاقات بين الدول بميسم الحرب أكثر من السلام، وذلك لطبيعة حركة التنافس بين الدول في بحثها الدائم والدائب عن الموارد، وربما في حالات كثيرة لإرضاء النزعات الشريرة التي تنتاب العديد من الحكام المطلقين **Absolute Rulers** لا سيما الأمراء والملوك الذين كانوا يسعون لتخليد اسماءهم في التاريخ بصناعة مجد لهم عبر الحروب التي يشنونها علي غيرهم من الملوك. والفتوحات التي يجرونها لغيرهم من الدول والبلدان، هذا فضلاً عن النزوات النفسية لبعض الحكام الذين يصابون فيما يمكن تسميته "بجنون العظمة" وسيادة الأعراق والدم في التوجهات الإنسانية التي تجسدت في الفكر النازي والنزعة الفاشية لكل من هتلر وموسليني، إضافةً للأفكار الإلغائية

التوسعية والإستيطانية التي يحملها الفكر الصهيوني الذي يقول " بسيادة العنصر اليهودي " والذي في آخر المطاف قد جر الولايات علي شعب أصبح يواجه حرب إبادة وإبعاد عن أرضه ومحقه من الوجود، متمثلاً في الشعب الفلسطيني الذي باتت قضيته تؤرق مضجع اصحاب الضمائر الحية. لذا فإن تتبع مسار العلاقات الدولية يبين أن الحرب وليس السلام كانت الاكثر سيادة علي مسرح الاحداث وهذا ما تؤكدته الشواهد المعاشة حالياً بل حتي في التاريخ السابق، ففي دراسة أجرتها مؤسسة كارني للسلام عام ١٩٤٠ عن حروب العالم في التاريخ أقتبست من رسالة " ايفان سي بلوخ " الشهيرة عن مستقبل الحروب ذكرت أن احصاءً بين أنه منذ العام ١٤٩٦ ق.م. وحتى العام ١٨٦١م وهي دورة زمنية طولها ٣٣٥٧ عاماً، شهدت البشرية ٢٢٧ سنة من السلام مقابل ١١٣٠ سنة من الحروب، بمعنى آخر هناك ١٣ سنة من الحرب مقابل كل سنة من السلام. وفي إحصاء أحدث تبين انه خلال ٥٥٦٠ عاماً منذ عرف تاريخ البشرية وحتى عام ١٩٤٥م حدثت ١٤٥٣١ حرباً بمعدل ٢,٦١ حرب كل عام. كما تبين انه خلال ١٨٥ جيلاً من الأجيال لم ينعم بسلم مؤقت من بينها الا عشرة اجيال فقط. وقد نكب العالم خلال الاعوام الاربعة والخمسين التي انقضت منذ وضعت الحرب الكونية الثانية اوزارها بما يزيد علي مائة حرب بينها حروب اتسع نطاقها الي درجة مفزعة رهيبية، وحروب طال أمدتها علي الرغم من ضيق نطاقها. وحروب خاطفة بلغت أقصى درجات الشراسة والضرارة علي الرغم من انها لم تدم سوي بضعة ايام او اسابيع، معني ذلك ان البشرية تواجه مرة كل خمسة أشهر علي وجه التقريب نزاعاً مسلحاً عنيفاً في مكان ما من العالم. وغالباً ما ينجم عن هذا النزاع كوارث إنسانية مروعة وخسائر جسيمة في الارواح والأموال والمعدات^١.

ومن المفارقات المذهلة أن الإنسان – وهو في التحليل النهائي نواة المجتمع البشري – هو الذي إبتدع أسباب الحروب وانخرط فيها، وهو ذاته الذي إكتوي ويكتوي بناها ويكابد لظاها، وهو ذاته الذي يشن الحروب في لحظات التهور والطيش، وهو ذاته الذي يرفع صوته بالشكوي من فظائعها ويسعي في لحظات التعقل الي الحد منها وضبطها، والإنسان نفسه هو الذي يخوض غمار الحرب بلا رحمة ولا شفقة، وهو ذاته الذي يعمل في لحظات اليقظة الوجدانية الي جعلها انسانية والتخفيف من ويلاتها. الإنسان ذلك المخلوق اغريب هو اصل الداء وهو مبتدع الدواء بين نزعتي الخير والشر، في هذا المخلوق العجيب تسعد البشرية أو تشقي. تقول مقدمة دستور اليونسكو " لما كانت الحروب تبدأ في عقول الناس . ففي عقول الناس يجب أن تبني حصون السلام.^٢

ثقافة السلام

طبقاً لهذه الحقائق المفزعة سابقة الذكر، وعملاً علي مبدأ نشر ثقافة الامن والسلام فقد جرت محاولات عدة علي المستوي الدولي لتضمين مبدأ ثقافة السلام في السلوك العام للدول والأفراد علي حد سواء. ورغم ان هذه الجهود لم تسفر عن تجذر ثقافة السلام بشكل قوي في السلوكيات الا انها تعتبر جهداً مقدراً يجب العمل علي مضاعفته، ذلك أن غرس ثقافة السلام ليس بالمهمة السهلة، وإنما هي عمل شائك ومركب ويقوم علي عدة مستويات من التفكير، منها ما هو خاص

^١ محمد عزيز شكري : دراسات في القانون الدولي الإنساني. دار المستقبل العربي، الطبعة الاولى ٢٠٠٠ م . القاهرة. ص. ١١

^٢ محمد عزيز شكري . المصدر نفسه ص. ١٢

كالإعتراف بالآخر، وإعلاء قيم التسامح والعيش المشترك بين مختلف الأعراق، الطوائف القبائل والديانات. ومنها ما يتعلق بجعل سلوك الدول علي مستوي ممارستها لسياساتها الخارجية ان يتصف بشئ من الحكمة وإعمال وسائل سلمية من خلال تفعيل القنوات الدبلوماسية والتعاون الدولي لإستصال شأفة الحرب وتحقيق اكبر قدر من الرفاهية من خلال الإعتماد المتبادل للمنافع بين الدول والجماعات. وقد خطت الاسرة الدولية في هذا المضمار مشواراً لا بأس به وذلك عن طريق انشاء المنظمات الدولية التي وإن بدت في الإطار العام غير قادرة علي تجذير فكر السلم وثقافته إلا أنها افلحت في الحد من الحروب علي النطاق الدولي... وهذا ما يتجسد في حال منظمة الأمم المتحدة التي اعقبت سلفها — عصبة الأمم — التي انهارت عند إندلاع الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٣٩م.

مهما يكن من أمر فإنه يصبح ضرباً من العبث المضي في التعريف بمبدأ ثقافة السلام، دون التطرق الي نقيض مفهوم السلام نفسه. فثقافة السلام بالمقابل تقابلها ثقافة العنف، والعنف كما تعرفه أدبيات منظمة الصحة العالمية بانه " هو الإقدام علي استخدام القوة المادية او النفوذ لتهديد او لإيذاء المرء لنفسه أو ، الآخرين، أو ضد مجموعة أو ضد المجتمع الذي يمكن ان ينشأ عنه احتمالات الضرر، الموت، أو الأذي المادي، أو إعاقة التنمية أو الحرمان وذلك بنية مسبقة^٣ " إن تضمين النية المبيتة او المسبقة في عملية العنف تستبعد بطبيعة الحال كل الأحداث التي لا تنطوي علي دوافع شريرة رغم ما تسببه من أذي كحوادث السير علي سبيل المثال او الحرائق التي تنشب بفعل الأخطاء وما الي ذلك من احداث. إن التعريف كذلك يوسع من مفهوم استخدام العنف بتضمينه كلمة النفوذ التي تتسع لتشمل علاقات القوة في ممارسة السياسة الدولية التي تتراوح بين الإستخدام الفعلي الي التلويح بإستخدام القوة، بل حتي إنه يمكن أن يصل الي درجة ان يتضمن مبادئ فرض الحصار الإقتصادي الذي تنجم عنه خسائر علي مستوي الإيذاء البدني بتجويع المواطنين وتدهور أوضاعهم المعيشية الي الإيذاء النفسي خاصة وان التعريف قد اقر بأن الحرمان جزء من ثقافة العنف.. وهو بالفعل كذلك ذلك أن الحصول علي متطلبات الحياة من خلال تبادل المنافع والتعامل الحر المفتوح يجسد قيماً اساسية في السياسة بالنسبة لكل دولة تري في انها مستقلة وذات سيادة لها كامل الحق في فتح مجالات للتعاون مع من تريد وتشاء وفي اي مجال طالما كان ذلك شرعياً ومقبولاً اخلاقياً.

إذاً وبما ان العنف كتعبير وممارسة مناقضة للسلام ومقتضياته فإنه يسهل علي المرء ان يجري تعريفاً وإن إجرائياً حتي يستبين الفارق بين ما هو عنفي وما هو سلمي. فالسلام هو " نظام من علاقات مستقيم ليس فقط بين الدول والافراد، وإنما بين المؤسسات والجماعات." متي ما اختلفت هذه الإستقامة جنح أطراف العلاقة الي اللجوء للعنف وذلك لتطويع الطرف الذي اخل الي حالة الطاعة والإستجابة لرغبات صاحب النفوذ.

اما ثقافة السلام كتعريف فقد اوردت منظمة اليونسكو تعريفاً لها يقول "ثقافة السلام هي نظام من القيم والسلوكيات تركز علي عدم العنف، وإحترام كينونة الإنسان عبر عدة آليات ووسائط منها التعاون المشترك، التسامح، إحترام حقوق الإنسان وإحترام الآخر المختلف." وتمضي اليونسكو في هذا الصدد لتقول بمبدأ إنتفاء النزعة العسكرية فيما تسميه بالسلام الإيجابي Positive

^٣المصدر السابق ، نفسه

Peace والذي يتضمن ليس فقط حالة انتفاء الحرب، وإنما إنتفاء ادواتها ومؤسساتها⁴. إن غاية ما يصبو اليه التعريف هو تحويل التنافس العنيف بين الدول والأفراد الي مبدأ تبادل المصالح والمنافع والتعاون في تحقيق الأهداف بحسبان ان الجميع جزء لا يتجزأ من الاسرة الدولية.

إن ثقافة السلام كمفهوم لا تقف عند حد التعريف الجامد، وإنما هي ممارسة في الأصل تتسم بالدينامية والتطور. وهي تقوم علي وسائل منها المسموع ومنها المقروء ومنها المرئي وهي في نهاية المطاف عملية غير متناهية لا تقف عند حد معين بل هي إجراء مستمر **On Going Process** تتوقف علي مدي تفاعل أي مجتمع مع توجهاتها فهي تفهم ضمن الضرورة التي تقضي بتجذير وتمتين مفاهيم العدل والحرية بين بني البشر بغض النظر عن الوانهم وانتمايتهم الأولية دينية كانت أم عرقية أم مذهبية أم جهوية. وهي تعبير أصيل عن الرغبة في الإستمرار بصورة مشتركة دون أن يوقع احدهم أذي علي الآخرين. كما أنها تقوم علي إحترام حقوق هؤلاء الآخرين بإعتبار أن احترام حقهم جزء لا يتجزأ من إحترام الذات وهذا بالتحديد ما أوصت به الرسالات السماوية لا سيما الدين الإسلامي الذي كاد أن يوفق بين الأنا والآخر لدرجة التطابق "لا يؤمن احدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه" وهذه قيمة انسانية اساسية يمكن أن تكفي البشر شر التنازع إذا ما عمل بمقتضاها.

العناصر المفهومية لثقافة السلام

إن مصطلح ثقافة يمكن استخدامه بالمعني الواسع للكلمة كما يمكن استخدامه بصورة محددة. ففي المعني الواسع فإن "ثقافة" تهتم بالانشطة الكلية للحياة البشرية التي تلي المعرفة والممارسة. أما في النطاق المحدود فإن المعني للثقافة فيتوقف علي مجموعة معارف في الفن والأدب والعمران ... الخ. بيد انه لا بد ان يفهم موضوع ثقافة اسلام في الإطار الأشمل لكلمة ثقافة كالفهم الذي صاغته منظمة اليونسكو في ادبياتها والتي توصي بمشاركة جميع الناس في الحياة الثقافية. فالثقافة ليست تراكم الأعمال والمعارف التي تنتجها النخبة، وإنما هي في الوقت نفسه إكتساب المعرفة والرغبة في التواصل النابع من الحاجة الإنسانية لمثل هذا التواصل بتركيز خاص علي القيم الاخلاقية، الاجتماعية والثقافية والقانونية. حيث تظل القيمة المعيارية لثقافة السلام تتجلي في مدي تأثيرها علي السلوك اثناء النزاع.

علي ان ثقافة السلام تقوم علي عمدة اربعة هي :-

١. التعليم من أجل السلام والتفاهم الدولي والتسامح.
٢. تدعيم حقوق الإنسان والديمقراطية والنضال ضد التمييز.
٣. التعدد الثقافي والحوار الثقافي.
٤. منع النزاعات وبناء السلام في مرحلة ما بعد النزاع.

أثر ثقافة السلام علي السلم الإجتماعي

ثقافة الناس المتمثلة في جملة قيمهم وانماط حياتهم وما قد تتغذي عليه من مشاعر المقت والكراهية هي التي تقود الي اشعال الحروب والنزاعات، كما انها بالمقابل إذا ما شحذت بإتجاه التحمل والتفاهم والرغبة الحقيقية في العيش المشترك تقود الي سبل السلام وتوطد دعائم ثقافته، حيث تتشكل هذه الثقافة كمعطي حياتي يسهم بدوره في تعضيد القواسم والروابط الإنسانية ويؤكد الرغبة في بلوغ الغايات المشتركة للإنسانية بالعيش في وئام وإطمئنان فتكون بالتالي القاعدة الصلبة التي تنطلق منها البشرية في تحقيق حركة اعمار الارض علي هدي من أداء الدور الاشمل للإنسان الذي اوجده الله تعالي لإعمار الأرض لا ان يعيث فيها فساداً، وبالتالي يكون التعامل مع السلام لا بحسبانه غياب الحرب، وإنما بحسبانه الارضية التي يمكن الإرتكاز عليها لكل من الدول والمؤسسات والجماعات لصنع ارادة الحياة، وبحسبانه مؤلف من مجموعة القيم الإنسانية التي تحترم وتعمل من أجل الحرية والعدل والتضامن والتسامح وكرامة الإنسان أياً ما كان نوعه أو إنتمائه أو عقيدته كل هذه القيم لا تتحقق ولا تحترم الا ضمن المنظومة الضامنة للعيش المشترك والمتمثلة في الصيغة الديمقراطية للحكم.

واهمية ثقافة السلام تتأكد في المجالات الحيوية كالتنمية والوحدة والوطنية وسيادة حكم القانون والتي في نهاية المطاف تؤكد علي المجري العام للحياة فيما يسمي بالسلم الإجتماعي أو السلم الأهلي والذي ينبثق بدوره من عقد اجتماعي يؤمن التوازن بين حقوق الافراد وإحتياجات المجتمع من خلال ما وصفه جان جاك روسو بـ "الإرادة الكلية" التي يخلقها مجموع الافراد من خلال تنازلهم من حرياتهم الكلية لصالح "الحرية المدنية" والتي تبقى لصالح الجميع.

حيث تمكن هذه القيم من صنع فضاء مجتمعي يرسى دعائم الإستقرار الاجتماعي لا سيما في مرحلة ما بعد الحرب حيث لا يجب ان يترك مجال للنكوص والردة الي الحرب وذلك بإستنفار الناس وتعبئة جهودهم لضمان استقرار واستمرار السلام وترسيخ وتمتين اسس العدل والقانون ومحو آثار الحرب وصيانة المبادئ والممتلكات واستنهاض الهمم وشحذ العزائم لصياغة سلوك جديد يناسب السلام.